لوركا... رسّاماً

بقلم فريدريكو غارسيا لوركا

ترجمة الانسة سلافة حسن مختار

يقترن اسم لوركا بالشعر اقتراناً ملازماً يدعمه الاخلاص ، ولكنه في الوقت ذاته يكن للتصوير بالالوان غراماً عنيفاً لم يزل مستتراً في حنايا شعره. لذا فهو لا يتوانى عن المجازفة بسمعته كشاعر محض ليظهر من خلال ابياته مصوراً ماهراً، وذلك بتكرار ذكر اسماء الالوان على هيئتها سواء لزم ذلك ام لم يلزم : فمن الواضح ان الشجر اخضر ، والحليب ابيض ، والليمون اصفر ، ولكن لوركا المغرم لا يستطيع ان يقاوم سحر هذه الصفات فيذكرها في شعره مقرونة بالموصوفات كما لو كان يرسم بريشة ، فهو يقول : « جداول من الحليب الابيض » ، « قرطبة فيها زيتون اخضر » ، ويصف عذراء العزلة « لابسة حلة سوداء » .

ان كان لوركا يذكر الالوان في حين ان وجودها لا يضيف الى معنى الشعر شيئاً ، فما أحراه ان ينتشي بذكرها حين يعتقد بضرورتها — انها تؤجج قلبه كما يفعل كل محظور ، وهو يسلم قياده كلياً الى هذه الفاكهة الجزلة المنعشة التي تنبت في حديقة محرمة عليه . اسمعه يغني في « اغنية الهائمة في الليل » : [1]

خضراء ، كم احبك يا خضرة .
ايتها الريح الخضراء .. ايتها الغصون الخضرة .
السفينة في البحر ، والخيول على الجبل .
الظلال تحوط خصرها
وهي تحلم على السلالم ،
اهابها اخضر ، وشعرها اخضر ،
وعيونها كالفضة باردة .
خضراء ، خضراء ، كم احبك يا خضرة .

تتكرر صفة « الخضرة » في هذه الاغنية اربعاً وعشرين مرة فتكاد تكون نتيجة ذلك انشودة دينية. ان اللون الاخضر هنا يضفي على القصيدة جواً يتناسب واشخاص الاغنية ، وهن غجريات خضر الاجسام ، سود العيون ، هذا الانسجام اللوني هو سلسلة من الظلال الخضر كما في لوحات الفنان « بول فيرونيز » . يستعمل لوركا في هذه الاغنية لوناً واحداً شافاً يتشرب جميع الالوان الاخرى ، ولكنه في اغنية « مصارعة الثيران » يستخدم سلسلة كاملة من الالوان الجريئة النابضة المناسبة لجو الاحتفال . ها هو في هذه الاغنية يبدو انطباعياً أصيلا ... اللون والضوء يعنيان كل شيء له :

في اعنف مصارعة ، شهدتها « روندا » القديمة ،
كان هناك خمسة ثيران سوداء فاحمة ،
وعليها اشرطة سود وخضر .
وطول الوقت كنت افكر فيك ،
كنت احلم .. لو كانت معي الآن
صديقتي الحزينة ،
صديقتي ماريا نيتا بينيدا !
جاءت الفتيات يولولن ، على عربات بعجلتين

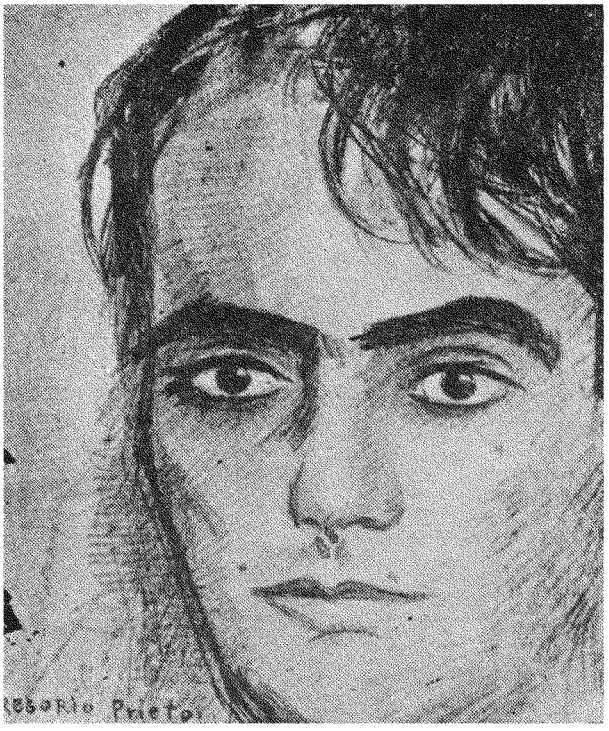

فريدريك غارسيا لوركا — بريشة كاتب المقال

عليها مراوح مستديرة مزركشة بالخرز البراق
وشبان من « روندا » كثيرون
على خيولهم المستطارة ، وقبعاتهم الرمادية
مدلاة على جباههم ،
وحلبة المصارعة زاخرة بالمتفرجين
رددت كالفلك ، ضحكات بيضاء وسوداء .

اللون الاخضر هو لون الشاعر المفضل ، ويأتي بالمرتبة الثانية اللون الاحمر . ولكن الغريب ان فيدريكو غارسيا لوركا نادراً ما يذكر هذا اللون باسمه بل يكنى عنه بالدم والجروح : « جئت اقطر دماً » ، « جرحي الذي يمتد من صدري الى حلقي » ، « انبثقت خمس نافورات تقذف دماً » . وشعره مليء بمثل هذه التعبيرات. اما الاصفر وهو ثالث الالوان المفضل عند الشاعر فيأتي كالضمادة يغطي ويشفي بظله المرح ، ذلك الجرح الارجواني العميق الذي نما مع شعر لوركا — من حداثته الى شبابه الى نضجه التام — ثم تردى من اسوأ الى اسوأ حتى سبب تلك الخاتمة المفجعة التي كان لوركا يتوقعها ، ويسير اليها مسحوراً كما يسير الحبيب للقاء حبيبه . ولذلك نراه دائماً يغسل الجرح العميق بالطهور الاصفر : « دموع من عصير الليمون » ، « يا شجرة الليمون اقذفي بالليمون الى الرياح » ، « وينشر القمر الشاحب غدائره الصفراء على الابراج الصفراء » ، « وحية صفراء تتلوى » . بين هذه الالوان الايجابية القوية : الاخضر والاصفر من جهة ، والابيض والاسود من جهة اخرى — تتأرجح الآف الظلال الباسمة : « روميو وجوليت ، سماء زرقاء ، بيضاء وذهبية ، وعناق في الحديقة » ، « الثياب البيضاء تحمر » ، « مراوح من ذهب » ، « عينا (لولا) خضراوان ، وصوتها من ارجوان » ، « كأقواس قزحية

---

١ مقطع من اغنية « الهائمة في الليل Somnabule- Ballad »

٩١

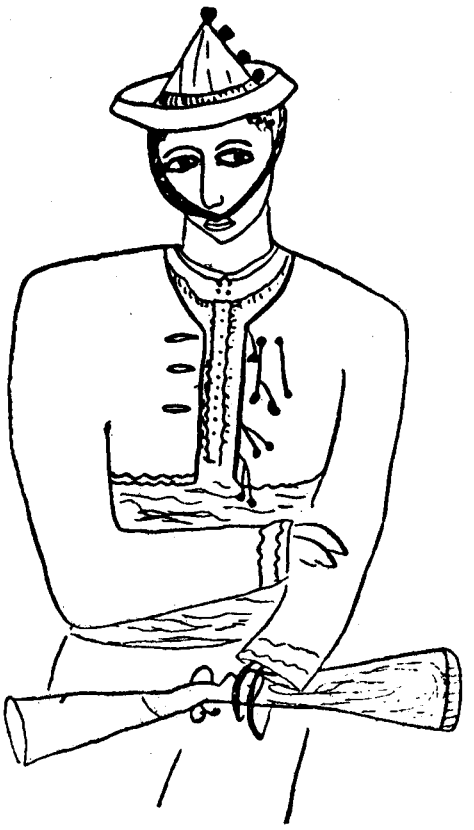

« أيدي مخلوقاتي هي مخالب شاة ! » – بريشة لوركا

سود في ليلة زرقاء ». أما في « الوردة المتقلبة » فهو يمزج الابيض والاحمر مزجاً متناسقاً مكوناً منهما ظلالاً وردية شهية :

عندما تنفتح في الصباح ، تكون حمراء كالدماء .
لايمسها الندى ، خوف ان يحترق .
وفي الظهيرة وهي متفتحة، تكون صلدة كالمرجان .
تتأجج الشمس على زجاج النوافذ ، لتراها تلتمع .
وعندما تبدأ الطيور تغني على الغصون
والمساء يميل الى القمة ، والبحر بلونه البنفسجي
تستحيل الى بيضاء كبياض قرص الملح ،
وعندما يمس الليل قرنه الابيض المعدني
وتتقدم النجوم وترحل الرياح في نخوم الليل
تأخذ اوراقها بالذبول .

في هذه اللمسات الشفافة كلمسات الالوان المائية نجد لوركا رقيقا مسرفاً ، وفي اشعار اخرى يرسم لنا اجواء قاتمة كأجواء « غويا » المتأخرة ، وذلك باستعمال الابيض والاسود فقط ، ولكن قبل ان تنتقل الى تلك الاجواء لنرى لوركا يصور وكأنه يدهن بالزيت اصباغاً تتراوح بين الالوان المائية الخفيفة والالوان الثرة : من « القبض على انطونيو آل كامبوريو » :

انطونيو توريو هيريديا ، حفيد وابن كامبوريو
ذاهب الى مصارعة الثيران في اشبيلية
وعصا من البان في يده ،
مع عتمة القمر ، انطونيو يسير الى اشبيلية
الى مصارعة الثيران .. رشيق الخطى بطيئاً .
ضفائر شعره زرقاء قاتمة ، تلتمع بين عينيه
وفي منتصف الطريق ، قطف ليمونات كروية ،
ورشقها في الماء حتى استحال الى ذهب
وفي منتصف الطريق ، تحت اغصان الدردار
كان الحرس الوطني يسير على الجانبين ..

اما اللون الابيض فيصور به لوركا رقة الفتيات الحسان : « في الهواء الابيض سبع عصافير فارعة » ، « اولا لا .. بيضـــاء على الشجر ، او لالا .. بياض في البياض » ، « هـــا هي كارمن ترقص في شوارع اشبيلية بشعرها الابيض وعينيها البراقتين » . يتخذ لوركا اللون الابيض حين يريد أن يعبر عن ابهج رؤاه ، فهو يغني للمرأة والطفل بالابيض . وعندما يظهر اللون الاسود في شعره فانما يكون ذلك عن جدار منيع من الاسى والالم والجريمة ، اذ يتقمص الشاعر شخصية غجري في « اغنية الحرس الوطني » حيث يسيطر اللون الاسود عليه فيراه ليس في قبعاتهم ونفوسهم فحسب بل في كل ما يمت الى خيولهم ، في كل مـــا يمت الى السنابك ، بل حتى حبرهم ، وحتى دوامات الغبار التي يثيرونها في الهواء :

خيولهم سود ، وسود حوافرها الحديد ،
وتشع على مآزرهم بقع من الحبر والشمع
وما دامت جاجمهم من رصاص ، فلن يبكوا .
يتقدمون بارواحهم ، وقبعاتهم الملونة
عبر الطريق .

في رثاء « اجناسيو سانكو ميجيا » يظهر لوركا فناناً اندلسياً صميماً ، اذ ينهج في هذه المرثية نهج « فلا سكويز » و « زوربران » المصورين الاندلسيين . كانا من اشبيلية وقد تميزا بالروح الارستقراطية الانيقـــة المحافظة التي تقف على طرفي نقيض من الروح الشعبية المحبة للالوان الصارخة القوية التي يألفها اهل غرناطة . يصور لوركا شعره في هذه المرثية بالوان ثلاثة ، الابيض والاسود والاحمر :

ولكنه الآن ينام نوماً ابدياً .
ها هو الحشيش والعشب ، يفتح بانامله الجريئة
زهيرة رأسه ، وينضح دمه مغنياً :
مغنياً عبر المروج والوديان ،
منزلقاً على القرون المتجمدة ،
مترجرجاً بلا روح في الضباب ،
متعثراً بالآف الحوافر ، كلسان طويل قاتم حزين
ليكوّن حوضاً من الحسرة والالم ،
ايه .. يا جدران اسبانيا البيضاء !
ايه .. يا ايها الثور الاسود الحزين !
ايه .. يا دم اجناسيو المتجمد !
يا اغرودة عروقه ،
كلا ، كلا ، لا اود أن اراه !

يستعمل لوركا الالوان في هذه القصيـــدة كما يستعملها « فلاسكويز » في لوحة « المسيح على الصليب » وكما اعتاد « زوربران » تصوير رهبانه بالابيض على (خلفية) سوداء عميقة . في « الصرخة » يشبه لوركا الصراخ بقوس قزح اسود في ليلة زرقاء، وفي « سيتا » يقول ، « المسيح الاسود يمر من زنابق جودا البيضاء الى قرنفل اسبانيا .. انظروا من اين يأتي ..

٩٢

من اسبانيا حيث السماء الصافية والتربة البنية المحرقة .. المسيح الاسود ، خدوده المحروقة ، وجناته النافرة .. ومقلتاه البيضاوان . » نرى من هذه الامثلة ان لكل لون معنى خاصاً لدى لوركا كما لو كان يصور بالريشة وكثيراً ما يستعمل اللون الفحمي القاتم حيث تكون صوره مليئة بالظلال، وحيث تأخذ هذه الظلال القوية مكان الالوان المشرقة . فمثلاً يقول : « في ليل البستان تتطاول اشباحهم حتى تصل السماء ، مظلمة » . وهناك ظلال اخرى مثل التي تنتج عن تسليط الضوء الاصطناعي على تماثيل كلاسيكية في مدرسة فنية ، « تُعريها الفحمي يلطخ الهواء الساكن » ، او عند الغروب كما يقول « تركت الصيحة خلفها ظلاً صنوبرياً في الرياح » . ولنستمع الى قصيدته « الصياد » والتي هي اقرب الى تعبير انطباعي من كونها شعراً :

فوق اشجار السرو ،
أربع حمامات تطير في الهواء .

اربع حمامات تطير وتحوم .
تحمل ظلالها الجريحة الاربعة ،

تحت اشجار السرو
اربع حمامات تغفو فوق التراب ...

ان هذا التباعد بين الظلال الانيقة والظلال القاتمة في شعر لوركا يشبه اختلاف اللون والضوء في صور « رمبراندت » بغموض اضواءها وظلالهـــا .

تأثر لوركا بجميع المدارس الفنية ولكنه طبع ما اقتبس بطابعه الخاص القوي . لقد رأينا الانطباعية في « الصياد » ، اما التكعيبية فهي في قوله : « الواجهات المجصصة تربع الليل وتبيضه » . والكلاسيكية الحديثة تتجلى في قوله : « كنهر من الاسود شجاعته ، وحكمتـــه الدقيقة كتمثال نصفي رخامي ، هواء اندوليسيا الرومانية يذهّب رأســـه حيث ضحكته كشذى فطنة وفهم » .. أما السريالية فحـــين يقول « بكى الزنوج مذهولين بين المظلات وشموس نصف الليل » ، « مد المولدون اربطة من المطاط لتصل التماثيل النصفية البيضاء ... زنوج ، زنوج ، زنوج ، زنوج ... » ..

ان في هذه الامثلة ما يكفي للاثبات ان لوركا الرسام وهو في قلب لوركاالشاعر . ان لوركا يخفي شخصيته كرسام تحت شاعريته . ولكنـــه يعلن عن نفسه بعد ذلك فيرسم باقلامه الملونة خالقاً شخصية الشاعر فيه ومظهراً شخصيته الثانية . لقد ظهر لوركا مصوراً من خلال شعره وبدا شاعراً

صدر اليوم

صناعة الحلوى

احدث ماصدر في صناعة الحلوى . يطلب من مكتبة المعارف في بيروت .

الثمن ٥٠ ق . ل

العذراء ذات الآلام السبعة – بريشة لوركا

من خلال رسومه . ان التصوير يحتاج الى تمرين شاق ، فالتصوير فن منظم وكذلك الشعر ، ولكن الشاعر لا يكابد في ايجاد كلماته كما يكابد العامل في مادته ، الشعر الهام واكثر منه صنعة يطير حيثما يشاء ، ولكن التصوير يظل على الارض حجراً اكثر منه جناحاً .

لنقارن الصورة التي رسمها لوركا « للعذراء ذات الاحزان السبعة » مع قصيدته « موكب الاسبوع المقدس » التي تتناول الموضوع ذاته ولكنها تختلف في التقنية :

عذراء يا ذات اللباس الخشن ، يا عذراء العزلة
يا متفتحة كزنبقة كبيرة
في سفينه من نور .. تسيرين
عبر تيار المدينة الجارف
والنجوم المتلألئة الصافية ..
عذراء يا ذات اللباس الخشن .. يا من تسيرين ..
عبر نهر الطريق ... . صوب البحر !! ..

اما رسومه الاخيرة فهي حديثة جداً، انما تنتمي الى الفترة التي سيطرت فيها السريالية على الشعراء والفنانين. اذكر مرة اني كنت جالساً ولوركا في احد المقاهي حين قال لي : « اسمع يا جريجورو .. ان شاعرية رسومك وتصويرية شعري ينبعان من نفس الينبوع » . ليس اصدق من هذا القول اذ يصف لوركا نفسه بالمصور ...

نقلتها عن الانكليزية

بغداد **سلافة حسن حجاوي**